قراءة في مخطوط "الدرة الأنيقة في شرح العقيقة" للعلامة الشيخ "محمد أبو راس"

أ. محمد حيدرة
جامعة مستغانم

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، أما بعد: فإن الشعر الملحون في تراثنا الأدبي قد حظي بحظ وافر من التأليف والتداول والدراسة. ولئن شمل هذا النوع من الشعر سائر الأغراض التي شملها الشعر الفصيح، فإن أعلاها شرفا ورتبة ما كان مدحا وثناء على الله عز وجل، أو مدحا لنبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، وذلك لما فيه من ذكر الله تعالى، والصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم، والتذكير بأخلاقه وسيرته، والدعوة إلى محبته، والسير على محجته.

وكان من بين المؤلفات في هذا الشأن قصيدة العلامة سيدي سعيد بن عبد الله التلمساني، والتي قام بشرحها العلامة محمد أبو راس، وقد اطلعت على مخطوط لهذا الشرح، فأعجبت به أيما إعجاب، وأحببت أن أدرسه وأحققه، ولما كان هذا المقام لا يتسع لتلك الرغبة، فقد اكتفيت بقراءة مسحية للشرح، حاولت من خلالها أن أبرز طريقة المؤلف، وأهم المعالم التي وقفت عندها، ثم القيم المستفادة من الشرح.

وتناولت قراءتي هذه منهجية شرح القصيدة من خلال اللغة، من مفردات ونحو وصرف وبلاغة، ثم الشواهد من آيات وآثار وأشعار، ثم الأعلام والأماكن المذكورة في القصيدة، باعتبارهما من المحاور الرئيسية فيها، ثم ذكرت جانبا من المسائل العقيدية والتاريخية التي ذكرها الشارح، نظرا لأهميتها ودلالاتها، وفي الأخير ألمحت إلى مجموعة من المحطات التي عرج عليها الشارح، ليجعلها مستراحا للقارئ. وختمت قراءتي هاته بالإشارة إلى ملامح شخصية المؤلف العلامة أبو راس من خلال مؤلَّفه.

وأسأل الله العلي القدير أن يتقبل عملي، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

التعريف بالمخطوط:

المؤلف: العلامة الفقيه الحافظ محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد الناصر[1] بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الله بن عبد الجليل، الراشدي المعسكري الجزائري (1165-1238هـ/1755-1823م). عرف أبو راس بكثرة مصنفاته العلمية التي ناهزت المائة وخمسين مؤلفا في معظم الفنون والعلوم، غير أن الكثير منها لا يزال مخطوطا، والآخر منها مفقودا.

ولقد شملت مؤلفات أبو راس مجموعة واسعة من العلوم والفنون نقليها وعقليها على رأسها علوم القرآن الكريم وتفسيره وعلمي الحديث والفقه خاصة المالكي واهتم باللغة والنحو والصرف والتوحيد والعقائد والتاريخ كما

كان له إسهام في علمي الفلك والحساب وقد ذكرها مجملة بنفسه من خلال مؤلفه:" شمس معارف التكاليف في أسماء ما أنعم الله به علينا من التآليف" وأتمها قبل وفاته بثلاثة أسابيع فقط، أهمها: الإبريز والإكسير في التفسير، في ثلاثة أسفار، والآيات البينات في شرح دلائل الخيرات، والكتاب الحاوي لنبذ من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوي وعجائب الأسفار ولطائف الأخبار، والنور الساري في شرح صحيح البخاري، في أربعة أسفار وغيرها.

مؤلف القصيدة: العلامة سيدي سعيد بن عبد الله التلمساني[2].

موضوع القصيدة: مديح النبي صلى الله عليه وسلم.

تاريخ تأليف القصيدة: شهر شعبان 1088 هـ[3].

عدد أبيات القصيدة: 297 بيتا[4].

صورة المخطوط: مخبر المخطوطات بكلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران.

مصدر المخطوط: المكتبة الوطنية الجزائرية، دائرة حفظ المخطوطات، مصلحة التصوير.

رقم المخطوط: 3195.

تاريخ كتابة المخطوط: 13 صفر 1306 هـ[5].

قياس المخطوط: 227×150

عدد أوراق المخطوط: 106 ورقة.

كاتب المخطوط: محمد بن محمد بن علال الدليمي أصلا المراكشي دارا ومنشئا[6]؛ وقد كتب المخطوط بإذن من العلامة سيدي محمد الحرشوي.

مكان كتابة المخطوط: دار العلامة السيد الحبيب بن العربي بن الحاج.

التعريف بالقصيدة:

القصيدة من تأليف العلامة الرباني، كما وصفه الشارح، الشيخ سعيد بن عبد الله التلمساني في غرض المديح، أي مدح النبي صلى الله عليه وسلم. قال عنه الشارح العلامة أبو راس القصيدة:" وكان ممن أشاد بتلك المحاسن، وورد من زلالها ماء غير آسن، ونشر تلك المآثر والسنن على أهدى سنن"[7]. وهي قصيدة من الشعر الملحون، تقع في مائة وسبعة وتسعين بيتا.

وسبب كتابتها بالملحون دون الفصيح، لا يرجع إلى قصور الشاعر أو عدم إتقانه للغة العربية الفصحى، وإلا فهو من أبرز علماء عصره؛ وإنما الغرض من ذلك تقريب معاني القصيدة من عامة الناس ليفهموها. وفي هذا يقول العلامة أبو راس:" قصيدة الناظم هذه تقرأ وتكتب على لحنها...لتسهل للعوام كما تسهل للخواص، وإلا فهو رحمه الله في الإعراب واسع الباع كثير الاطلاع لأفنية العلوم"[8].

ورغم كتابتها بالشعر الملحون، إلا أن الشارح العلامة أبو راس أعجب بها أيما إعجاب، بدليل الإشادة بها في مواضع عديدة من شرحه. ويكفي في هذا المقام أن أنقل ماذكره في مقدمة شرحه، حيث قال:" فلقد قلد جيد الحضرة النبوية...وأمداحا، ودار على المسامع كئوسا وأقداحا، مما يطرب الأطباع، ويذهب بها كل مذهب، ويستوجب أن يكتب بدوب الذهب. لقد أبدع في ترتيب قوافيها أولا وثانٍ وثالث، فجاءت أشهى والزمان نغمات المثاني والمثالث، وهي وإن كانت من الشعر الملحون، فقد احتوت على غرائب وعجائب من اللغة والبلاغة واللحون، حتى انقادت تمائم القصائد إلى سحرها، وصارت واسطة عقد نحرها"[9].

منهجية شرح القصيدة:

أولا: اللغة

1 – المفردات اللغوية:

احتوت القصيدة على عدد هائل من المفردات العربية، حتى أنه يمكن إفراد مؤلف خاص لها على هيئة قاموس صغير؛ وقد عمد العلامة أبو راس إلى شرح مفردات كل بيت مفردة مفردة، ما لم تكن من الكلمات بالمعروفة المشهورة. وكانت طريقة شرحه لها على النحو التالي:

أ – مفردات لغوية شرحها بنفسه:

ورد في القصيدة عدة مفردات لغوية، قام العلامة أبو راس بشرحها شرحا لغويا، دون أن يعزو هذا الشرح لأحد، وهو أكثر ما في المؤلَّف، وقد يضيف بعض الفوائد النحوية أو الصرفية. وهذه نماذج عن كلمات وردت في الشرح:

البطالة: "هي الاشتغال بالباطل"[10].

آه: وأوه للتوجع، ثم استعملت لما يشبهه، وهو التأسف المتحزن، وهي اسم فعل. فهنا أضاف إعراب الكلمة[11].

القلادة:" القِلادة بكسر القاف، العقد المنظم من جواهر أو خرز ونحوه، وإن كانت من قرنفل يقال لها سِحَابا". وهنا أضاف معنى ثانيا للكلمة[12].

البيان:" البيان إيضاح المعنى، والتِّبيان التفهم، وقيل: البيان منك لغيرك، والتبيان منك لنفسك...وليس في أبنية المصادر تِفعال، بكسر التاء، إلا التِّبيان، والتِّلقاء، والتِّنضال من المناضلة"[13].

ب – مفردات عزا شرحها إلى أئمة اللغة، كالخليل، والفيروز آبادي، والأزهري، وغيرهم.

وأما التي ذكر معانيها من خلال ما تناقله أهل اللغة، فمثل شرحه لكلمات العشق، والعرب، والظعينة على النحو التالي:

العشق:" العشق أعلى من المحبة، وكذا الوجد. وفي القاموس: عجب المحب بمحبوبه، أو إفراط الحب، ويكون في عفاف"[14].

العرب:" هو اسم جنس جمعي، وحده عربي، سموا به لسكناهم ببلدة تسمى "عربة" كما قاله الأزهري، ونسبة إلى يعرب بن قحطان كما في اللباب"[15].

الظعينة:"الأظعان جمع ظعينة، وهي المرأة ما دامت في الهودج، وكذا يقال للهودج، فيه امرأة أم لا. والتي في القاموس أن جمع الظعينة ظعن وظعائن؛ ولعل ما هنا مسموع. قاله في النهاية"[16].

الهجان:" الهجان جمع هجين، المهر الأبيض النجيب، وفي العين: الهجان من الإبل البيض الكرام، يقع على الواحد فما فوقه، وعلى الذكر والأنثى"[17].

ج – مفردات استشهد في شرحه لها بأبيات من الشعرالفصيح:

في هذه الحالة، يشرح العلامة أبو راس المفردة، ثم يتبعها بشعر يؤكد معناها المشار إليه، أو يضيف معنى آخر لها، غير الذي ذكر في القصيدة. وإضافة الأشعار واردة كثيرا في المؤلَّف. ومن أمثلة ذلك، شرحه لكلمتي الوصال، والعقيلة.

الوصال: قال العلامة أبو راس:" والوصال الوداد، ضد القطع، قال مسلم بن الوليد: فأعرف منها الوصل في يمن طرفها...وأعرف منها القطع في نضرها النزر فهنا، فسر الكلمة بضدها، واستشهد ببيت شعري، دون أن يعلق عليه[18].

العقيلة: هي الكريمة على قومها، وقد تكون من غير النساء، كقول طرفة: أرى الموت يغنم الكرام ويصطفي...عقيلة مال الفاحش المتلدد. فالشارح هنا شرح كلمة "العقيلة" على أنها المرأة الكريمة على قومها، وهو المعنى المراد في القصيدة، وأضاف للكلمة معنى ثانيا، استشهد له ببيت الشاعر طرفة بن العبد، وهو النفيس من كل شيء[19].

د – مفردات ذات دلالات خاصة:

كما أن بعض المصطلحات يوحي سياق استعمالها في القصيدة بأن المراد منها غير معانيها اللغوية، ولذلك فإنه يشرحها بحسب معناها المقصود. ومن أمثلة ذلك مصطلحات الفناء، والبقاء، والوجد عند الصوفية. قال العلامة أبو راس:" والفَنا بالفتح هنا، وهو على مصطلح الصوفية سقوط الأوصاف المذمومة، ويقابله البقاء، وهو قيام الأوصاف المحمودة، فالفناء والبقاء ضدان، والوجد عند الصوفية ما يصادف القلب ويَرِدُ عليه"[20].

هـ – مفردات من الشواهد:

وحتى الأبيات المستشهد بها يعمد أحيانا إلى شرح بعض ألفاظها، مثل قوله:"وقال النابغة الذبياني: وقفت بربع الدار قد غير البلا...معارفها والساريات الهواطل. الساريات جمع سارية، وهي مطر الليل، والهطل تتابع المطر وسيلانه"[21].

2 – المصطلحات النحوية والصرفية:

قد يستدعي شرح البيت من القصيدة التطرق إلى إعراب كلمة، أو بيان وضعها النحوي من خلال موقعها في الجملة، كما قد يتوسع الشارح بإضافة بعض الفوائد النحوية أو الصرفية كما تقدم. ومن أمثلة ذلك قوله في شرح البيت الخامس:" ف "مِنْ" تعليلية في الموضعين"[22].

وقال في شرح البيت السابع والتسعين:"هل هنا للتمني، كالتي في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾[23] عند بعض البيانيين، خلافا للمرادي"[24].

ومن الفوائد النحوية قوله في شرح البيت الثاني والعشرين بعد المائة: "ظل هنا من أخوات كان، وأصل معناها فعل نهارا، لأنه زمن يبدأ فيه الظل، ثم استعمل لدوام الفعل ليلا ونهارا"[25].

وأما الفوائد الصرفية، فقوله:" وليس في أبنية المصادر تِفعال، بكسر التاء، إلا التِّبيان، والتِّلقاء، والتِّنضال من المناضلة"[26]. وقوله:" ومحاسن جمع حسن، على خلاف القياس"[27].

3 – المصطلحات البلاغية: البيان والبديع

قال العلامة أبو راس:"لم يخل بيت من هذه القصيدة من نوع من أنواع الجناس...وأما بقية أنواع البديع والاستعارة والمجاز، فتارة وتارة"[28]. وسأضرب بعض الأمثلة عن ذلك.

ففي أول بيت أورد الشاعر نوعا من الجناس، وهو التام؛ حيث قال الشارح:" العقيق واد على عشرة أميال من المدينة المنورة...والعقيق الثاني خرز أحمر يكون باليمن...فهذا كله من الجناس التام".[29]

ومن الاستعارة قوله شارحا البيت الحادي عشر:" والجفن غمد السيف، وأراد هنا جفن العين، ففيه من بديع الاستعارة ما لا يخفى، لأنه شبه النساء في الحدوج بكتائب الفرسان، وشبه أعينهن برماح يطعن بها، وبسيوف استلت للضرب، والجامع التأثير، الرمح والسيف يؤثر في الجسد، ولحظ النساء الحسان يؤثر في القلب، كما قال الشاعر:

محاسنها سهام المنايا ... مريشى بأنواع الخطوب

يرى ريب الزمان لها سهاما ... تصيب بنصلها مهج القلوب"[30]

ومن التشبيه البليغ قوله في شرح البيت الخامس والثلاثين:" والعيون الأولى الباصرة، والثانية عيون الماء، وهو من باب التشبيه البليغ"[31].

وأما المجاز المرسل قوله في شرح البيت الخامس والستين: "تسمية المطر رحمة مجاز مرسل، والدموع استعارة، والجامع الانصباب"[32].

ثانيا: الشواهد: وقد نوع العلامة أبو راس الشواهد في هذا الشرح من القرآن والسنة، والآثار والأشعار.

1 – الآيات القرآنية: أورد العلامة أبو راس عدة آيات قرآنية، استعمل بعضها للاستشهاد عند شرح كلمات القصيدة، كما في شرحه لكلمة "تِبيان"، حيث قال: "البيان إيضاح المعنى، والتِّبيان التفهم، وقيل: البيان منك لغيرك، والتبيان منك لنفسك، تقول: بينت الشيء لغيري بيانا، وبينته أنا تبيانا، والأقرب أنهما بمعنى واحد. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[33]"[34].

واستعمل آيات أخرى لزيادة الإيضاح والشرح للمعنى، وذلك كقوله عند شرح البيت الحادي والثلاثين بعد المائة: "من بلغ هذا المقام ودخل له، لم يتروع من أهوال القيامة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾[35]"[36].

وبعض الآيات ذكرها الشارح، لأن الشاعر ذكر في القصيدة أحداثا في السيرة كانت السبب في نزولها. فقد قال في شرحه للبيت الستن بعد المائة إلى البيت الثالث والستين بعد المائة: "سميت دار قصي دار الندوة لاجتماع قريش فيها لفصل الأمور...فتشاوروا حينئذ في أمر النبي صلى الله عليه وسلم...فقال بعضهم: نثبتوه، أي نحبسه يهنا لنا العيش ويطيب...وقال البعض: نخرجه من أرضنا، نريح قبائل قريش منه، وأما عمرو، وهو أبو جهل، فلم يرض من خطابهم ورأيهم إلا قتله صلى الله عليه وسلم، ولما تفرقوا على قتله، نزل عليه من رب العزة: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾"[38].[37]

كما استعمل آيات أخرى للإشارة إلى بعض القضايا المرتبطة بالعقيدة، كمسألة محاسبة الكفار يوم القيامة. قال العلامة أبو راس: "وفيه دليل على أن الكفار يحاسبون. قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[39]، وقيل: لا يحاسبون، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾[40]، وقوله: ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[41]"[42].

2 – الأحاديث القدسية والنبوية والآثار:

أ – الأحاديث القدسية:

ذكر العلامة أبو راس حديثا قدسيا واحدا، استشهد به عند شرحه للبيت السادس والثلاثين بعد المائة[43]إذ يقول:" وهو صلى الله عليه وسلم عين الوجود، والسبب في تكوين الكائنات من نوره وكل موجود، فقد ذكر الشيخ المهدي في شرح دلائل الخيرات أن الله تعالى قال للنبي صلى الله عليه وسلم: لولاك ما خلقت الدنيا"[44].

ب – الأحاديث النبوية:

وأما الأحاديث النبوية، فمنها ما استشهد بها لما ورد في القصيدة، كما في شرحه للبيت العاشر، حيث قال:" والمودة هي خالص المحبة...أي نحشر يوم القيامة...بسبب محبتها على رأسي تاج؛ ففيه إيماء للحديث: فإن أهل المحبة في زي الملوك"[45].

وأحاديث استعملها في شرح مفردات القصيدة، مثل قوله في شرح البيت الثامن عشر: "ويح، كلمة ترحم، يقولها المتألم المتحزن، وتقال له. قال البغدادي: أخرج أبو نعيم أن الويح باب رحمة، والويل باب عذاب"[46].

وأحاديث أخرى استغلها للحث على مكارم الأخلاق، كما في شرحه للبيت الثالث والثمانين حيث يقول:"أراد بالمقام الأطهر العفاف. وفي الحديث: من اشتاقت نفسه لشهوة وقمعها، فله الجنة"[47].

ج – الآثار: وقد ورد في الشرح أثر عن علي رضي الله عنه، وهو عبارة عن حكمة تقول: "تجنبوا الأماني، فإنها تصغر المواهب التي رزقتم"[48].

3 – الأشعار: وهي أكثر الشواهد المستعملة، حيث لا تكاد صفحة من الشرح تخلو من شاهد شعري من مختلف العصور، وفي شتى الأغراض الشعرية.

ثالثا: الأعلام والأماكن:

1 – الأعلام:

الأعلام المذكورون في هذا الشرح للقصيدة لا يحصى عددهم، منهم الأنبياء، والصحابة، والعلماء والصوفية والشعراء (شعراء المعلقات وغيرهم) والخلفاء والوزراء والحكماء.

فمن الأنبياء سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، الذي قيلت في حقه هذه القصيدة، وآدم عليه السلام، وداود عليه السلام، وإسماعيل عليه السلام.

ومن الصحابة الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، إلى جانب آخرين كبلال بن رباح، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي رضي الله عنهم.

ومن العلماء الشيخ القطب محمد الهواري، والشيخ مقلاش، وابن شعبان، وهؤلاء من علماء الجزائر، وأما غيرهم، فكثير أمثال الإمام أبي حنيفة، وابن عبد البر، وشهاب الدين الخفاجي الذي رجع إليه كثيرا خلال الشرح.

إضافة إلى هؤلاء، فقد أتى على ذكر عدد من الخلفاء والوزراء والحكماء والشعراء وغيرهم، ممن لا يتسع المقام لذكرهم فضلا عن التعريف بهم؛ منهم من ينقل عنه قولا، ومنهم من يروي عنه قصة أو شعرا.

2 – الأماكن:

اشتملت القصيدة على عدد هائل من الأماكن، استدعى سياق القصيدة ذكرها على عادة الشعراء؛ إذ يذكرون أحبتهم ومنزلهم وآثارهم؛ وما كان للقارئ أن يعرفها كلها دون الرجوع إلى الشرح. ومن أمثلة هذه الأماكن:

العقيق: واد على عشرة أميال من المدينة المنورة.

البان: موضع بالحجاز.

رضوى:جبل غربي المدينة المنورة.

غزفاه: موضع على مرحلتين من مكة، بطريق المدينة.

تهلان: جبل بالحجاز.

رابعا: المسائل العقدية والتاريخية:

1 – المسائل العقدية:

ليس الغرض من هذ الشرح التعرض إلى المسائل الاعتقادية، إلا ما ورد منها في سياق القصيدة، فيرى الشارح أنه لا بد من التنبيه عليه. ومن ذلك قوله:" أول من لقب بالملك الأعظم من ملوك هذه الأمة السلطان سنجر بن السلطان البَارِسْلان السلجوني، وأبى العلماء هذا اللقب، كمالك الملوك، وسلطان السلاطين، وقاضي القضاة، لأنه لا يطلق إلا على الله سبحانه"[49].

وكحديث الشاعر عن صناديد الكفر من قريش، وأنهم سيحاسبون حسابا شديدا، قال العلامة أبو راس:" والمناقشة الاستقصاء في الحساب، وفيه دليل على أن الكفار يحاسبون، قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[50]، وقيل: لا يحاسبون، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾[51]، وقوله: ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[52]، ولما ذكر البرماوي على صحيح البخاري من المعارضة، أجاب عنها في آخر سفر منه بأن أرض الحساب مواطن، موطن يحاسب فيه الكفار، وموطن لا يحاسبون فيه"[53].

بالإضافة إلى هذا كله، يتخلل شرح القصيدة مجموعة من التنبيهات، واللطائف، والحكايات، والغرائب التي جمَّل بها المؤلف هذا الشرح، وجعله على صغر حجمه غزير الفائدة عظيم النفع.

2 – المسائل التاريخية:

لما كان موضوع القصيدة مديح النبي صلى الله عليه وسلم، فقد احتوت القصيدة على جانب كبير من السيرة النبوية الشريفة، تولى العلامة أبو راس شرح أحداثها في مواطنها. وفي سياق الشرح، كان يعرج أحيانا على بعض المسائل التاريخية لزيادة الفائدة، فيذكرها، مع ذكر الخلاف حولها إن وجد، ويحقق فيها متى أمكنه ذلك. ومن الأمثلة قوله: "أول من نزل مكة العماليق، وذلك في عهد عاد، ثم نزلها من العرب جرهم، أحد قبائل العرب، وإليهم أرسل سيدنا إسماعيل عليه السلام"[54]. وقوله في تاريخ منداس:" والمنداسي نسبة إلى منداس، وهي أرض

معروفة شرقي نهر مينا أحد أنهار المغرب الوسط، وسمي منداسا باسم ساكنه من البربر، له خمسة أولاد، كثرت ذريتهم في ذلك الموضع وانتشرت، فأزالتهم عنه لْوَاتَة وبنو وزدجير ومغراوة، فذهبوا إلى جبل وانشريس فتوطنوه"[55].

ومن أمثلة تحقيقه في المسائل التاريخية، كأصول الأمم قوله: "عرب العقيق: المراد بعرب العقيق العرب المستعربة، وهم ربيعة، ومضر، وأهل اليمن؛ وأما العاربة كعاد، وثمود، وطسم، وجديس، وجرهم...فانقرضوا. وقيل: بعض أهل اليمن من قحطان، وهو من العاربة. وأما قول الخفاجي: أبوهم قحطان وأمهم جرهم، فغير ظاهر"[56].

خامسا: المحطات:

وتشمل هذه المحطات تنبيهات وحكايات وفوائد أتى بها الشارح لزيادة الإفهام، وللتسلية، ولخدمة معنى من المعاني التي يهدف إليها الشرح.

1 – التنبيهات:

التنبيهات الواردة في شرح القصيدة هي بمثابة الملاحظات التي يضيفها الشارح العلامة أبو راس من حين لآخر على طول شرحه، ومن ذلك أنه افتتحه بأربع تنبيهات على التوالي، وهي:

"الأول: قصيدة الناظم هذه تقر وتكتب على لحنها.

الثاني: المراد بعرب العقيق العرب المستعربة.

الثالث: لم يخل بيت من هذه القصيدة من نوع من أنواع الجناس.

الرابع: قال شهاب الدين الخفاجي: الشعر أمر مسنون، ومعرفته فرض كفاية، والمدح به جائز"[57].

2 – اللطائف:

اللطائف هدفها هو نفسه الهدف من القصص، إلا أن اللطيفة تتميز بكون المعنى فيها لطيفا، أي خفيا، لا يدرك إلا بتأمل. ومن اللطائف قول الشارح: "كان بعض أهل البصرة مارا، فشم رائحة خمر، فسمع رجلا بها يقول:

إذا العشرون من شعبان ولَّت ... فواصل شُرْبَ ليلك بالنهار

ولا تشرب بأقداح صغار ... فقد ضاق الزمان على الصغار

فالقائل لكونه جاهلا، ما أراد إلا الخمر، والسامع لكونه من العارفين، فهم أن العمر إذا انقضى ثلثاه، وذلك أربعون سنة، فواضب على العبادة، فقد ضاق عليك"[58].

3 – الحكايات:

الغرض من القصة أخذ العبرة، والاستفادة من تجارب الآخرين، كما يكون الغرض أيضا الحث على مكارم الأخلاق ومحاسنها. ولذا فإن العلامة أبو راس يستشهد في شرحه لأبيات القصيدة بالآيات أو الآثار أو الأشعار، وأحيانا يروي في الموضوع قصة، فيكون لها من الأثر على نفس القارئ ما لا يخفى. ومن ذلك الحث على خلق

العفاف. قال العلامة أبو راس: "وكان توبة الشاعر خلا بليلة الأخيلية يوما، فهم بإيقاعها، فمنعته ووعظته، وقالت له:

لنا ثالث لا ينبغي أن نخونه ... وأنت لأخرى صاحب ودليل [59]

4 – الغرائب:

والمقصود بالغرائب الأمور التي يندهش المرء لسماعها، أو تلك التي لا يكاد يصدقها العقل. ومن ذلك ما أورده الشارح عن الشيخ عبد القادر الجيلاني، حيث قال:" ومثله أن الشيخ عبد القادر الجيلاني نفع الله به جلس للوعظ، فأتى مطر غزير، فصار الناس يتفرقون، فقال: يا مطر، إنا نجمع وأنت تفرق؟ فانقطع من فوره"[60]. وقوله أيضا:" كان للملك بلكين بن رزي الصنهاجي أربعمائة جارية، وبشر في يوم واحد بولادة سبعة عشر ولدا"[61]. فهذه الأمور تعد في عرف الناس من الغرائب والعجائب.

5 – الأوائل:

تضمنت القصيدة معلومات يصح إطلاق اسم "الأوائل" عليها، إذ ينبه المؤلف إلى أوائل الأمور في موضوعاتها؛ كقوله: "أول من لبس التاج من ملوك الدنيا النمرود"[62]. "غزفاه أول موضع صليت فيه صلاة الخوف على هيئتها المخصوصة"[63]. "أول من عقد اللواء سيدنا إبراهيم الخليل. وأول راية عقدت في الإسلام يوم خيبر"[64]. أحمد "وأول من سمي به بعده والد الخليل الذي اخترع علم العروض"[65]. "أول من عمل القصائد مهلهل بن ربيعة، ولم يقل أحد قبله عشرة أبيات. وفي الأغاني هو أول من كذب في شعره"[66].

خاتمة:

ملامح شخصية العلامة أبو راس من خلال الدرة الأنيقة:

تبدو معالم شخصية الشارح من خلال التنوع والمعارف الغزيرة التي أثرى بها شرحه للقصيدة، من لغة وأدب وتاريخ وغيرها، فهو ذلك العالم المحقق المدقق، الجامع لشتى أنواع العلوم والفنون؛ غير أنني سأركز على جوانب خاصة من شخصية العلامة أبو راس، وهي الجانب اللغوي، والجانب الأخلاقي، والجانب السلوكي.

1 – الجانب اللغوي:

القصيدة من الشعر الملحون، وقارئ الشرح يخيل إليه أن الشارح لا يتقن إلا هذا الفن، فإذا نظر إلى طريقة الشرح والاستدلال بالشواهد، أيقن أنه أمام عالم فذ في اللغة، ولا سيما توظيفه للشعر الفصيح في شرح الشعر الملحون.

ويدل على طول باعه في فن الشعر الملحون بعض الاستدراكات التي أوردها على مؤلف القصيدة، منها ما جاء استدراكا على البيت الرابع والتسعين بعد المائتين، وهو قول الشاعر:

والرْضَى عن الشيخين اَهل الهدى وعثمانْ

خِيرْ صَحْبُ وَالسَّبْعَ الموضْحِين سَبْلُ

حيث قال العلامة أبو راس: والمراد بالسبع المتبعين سبله هم بقية العشرة المشهود لهم بالجنة المشهورين والأَوْلى للناظم أن يقول:

والرْضى عن الشيخيْن وعلي وعثمان

خير صحبُ والستُّ لموضْحين سبْلُ [67]

وأما عن البلاغة، فهو لا شك من فرسانها الذين لا يشق لهم غبار، يظهر هذا جليا من خلال الصور البيانية، والمحسنات البديعية التي يمتع بها القارئ، وكأنها مناظر خلابة يطل عليها المسافر على طول الطريق.

وليس هذا في الحقيقة بغريب على عالم مثل الشيخ أبوراس، وهو الذي له شرح مقامات الحريري، وشرح دلائل الخيرات[68]، وهي تآليف لا يخوض غمارها إلا العالم المتبحر.

2 – الناحية الأخلاقية:

القصيدة كلها دعوة إلى مكارم الأخلاق التي جاء بها المصطفى صلى الله عليه وسلم، لأن من أحبه اتبع هديه، وسار على نهجه، لكن أبرز القيم الخلقية دعوة العلامة أبو راس من خلال الشرح إلى جملة أخلاق كريمة على رأسها خلق الوفاء للأحبة، وفي مقدمتهم الممدوح سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، إلى جانب أخلاق أخرى، كالكرم، وإغاثة الملهوف، والعفاف وغيرها، وهذا ما يعطي الشرح بعدا أخلاقيا وتربويا واجتماعيا.

3 – النزعة الصوفية عند المؤلف:

المؤلف العلامة أبو راس من العلماء المتصوفة، ويظهر من خلال شرحه لكتاب "دلائل الخيرات" الذي سبقت الإشارة إليه، كما أن تلك النزعة الصوفية تظهر بين الحين والحين في ثنايا الشرح؛ فتراه أحيانا يشرح مصطلحات خاصة عند الصوفية، كالبقاء والفناء[69]، والمحبة التي قال عنها:"قال القشيري: ولا توصف بوصف، ولا تحد بحد"[70].

ويقول في أحد التنبيهات: "تمني الناظم الجنة بالمحبة هو صفة بعض الكمال، فقد كانوا يرتاحون للعشق، مع الاتصاف بغاية العفاف والنزاهة خوفا من الله تعالى"[71].

وذكر الشارح في إحدى اللطائف أنه "كان بعض أهل البصرة مارا، فشم رائحة خمر، فسمع رجلا بها يقول:

إذا العشرون من شعبان ولَّت ... فواصل شُرْبَ ليلك بالنهار

ولا تشرب بأقداح صغار ... فقد ضاق الزمان على الصغار

فالقائل لكونه جاهلا، ما أراد إلا الخمر، والسامع لكونه من العارفين، فهم أن العمر إذا انقضى ثلثاه، وذلك أربعون سنة، فواضب على العبادة، فقد ضاق عليك. قلت: ولهذا، لما سمع رجلا يقول بحضرة مكين الدين بن الأسمر، الذي قال فيه الشاذلي: إنه من الأبدال هذا الشعر:

الراح شيء شريف أنت شاربه ... فاشرب ولو حملتك الراح أوزارا
يا من يلوم على صهباء صافية ... خذ الجنان ودعني أسكن النارا

فقال: هذا الشعر لا يجوز إنشاده، فقال ابن الأسمر للذي ينشد: قل هذا رجل محجوب"[72]. ففي هذه اللطيفة ذكرت كلمات: العارفين، والأبدال، ومحجوب، وكلها مصطلحات صوفية لايعرفعها إلا أهلها. وحتى الشعر الصوفي كان له حظه من الاستشهاد، بل إنه يلقى من الشارح كل الاستحسان والإعجاب. يقول العلامة أبو راس:" وما أحسن قول صوفي:

جنوني بكم حكم وغيي بكم رشد ... وحب الورى هزل وحبكم جد
رضيت بما ألقاه في السخط والرضى ... ولو كان سما فهو من أجلكم شهد
وحقكم ما سرني من سواكم ... دنو ولا من غيركمرر سرني بعد
ولا سمحت **بالصبر** عنكم حشاشتي ... ولا بخلت بالدمع أجفاني الرمد".[73]

وبعد هذه الجولة في ربوع هذه القصيدة الرائعة، وهذا الشرح المستفيض، لا يسعني إلا أن أشيد بهذا العمل الأدبي الجليل، الذي يعد لبنة في صرح تراثنا العربي الإسلامي، ولا يفوتني أن أوجه الدعوة إلى المزيد من الدراسات والتحقيقات لهذه الكنوز، عرفانا بمجهودات هؤلاء العلماء الأفذاذ، ونشرا لهذه الثمار التي تعبوا كثيرا في غراستها وتعاهدها، وعسانا نقتبس من أنوارهم ما يضيء لنا دروبنا.

الهوامش:

1 – ورد في صفحة التعريف بالمخطوط "الناصري".

2 – "يقال إن نسب الناظم رضي الله عنه من سريد بن مالك بن زغبة من بني هلال، أحد بطون هوازن من قبائل مضر بن نزار بن معد بن عدنان".

3ـ يراجع: ص. 96 من المخطوط.

4 – يراجع ص 100 من المخطوط.

5 – الظاهر أن عدد أبيات القصيدة أكثر من هذا العدد، لأن الصفحة 25 من المخطوط بيضاء، لا يظهر منها شيء، إضافة إلى أن الشرح المدون في الصفحة 26 هو لأبيات من الصفحة 25، كما يبدو من خلال شرح المفردات.

6 – 13 صفر 1306 هـ هو التاريخ الذي ذكر ناسخ المخطوط أنه تم فيه الفراغ من الكتابة، خلافا لما ورد في صفحة التعريف بالمخطوط من أن تاريخ النسخ هو 1608 هـ، وهو خطأ لا شك فيه، لأنه إن كان التاريخ هجريا، فإننا في عام 1431 هـ، وإن كان التاريخ ميلاديا، فإنه يكون موافقا لتاريخ 1016 هـ، وهو قبل تاريخ نظم القصيدة.

7 – هذا هو كاتب المخطوط كما صرح هو بذلك في الصفحة الأخيرة منه، خلافا لما ورد في صفحة التعريف بالمخطوط من أن الكاتب هو محمد الحرشوي، وإنما هو الذي أذن للكاتب وأجازه بالكتابة. يراجع ص. 106 من المخطوط.

8 – ص. 02 من المخطوط.

9 – ص. 07 من المخطوط.

10 – ص. 02 و 03 من المخطوط.

11 – ص. 66 من المخطوط.

12 – ص. 08 من المخطوط.

13 – ص. 06 من المخطوط.

14 – ص. 67 من المخطوط.

15 – ص. 08 من المخطوط.

16 – ص. 10 من المخطوط.

17 – ص. 10 من المخطوط.

18 – ص. 15 من المخطوط.

19 – ص. 07 من المخطوط.

20 – ص. 06–07 من المخطوط.

21 – ص. 52 من المخطوط.

22 – ص. 58 من المخطوط.

23 – المقصود ما ورد في قول الشاعر: ينظر: ص ص. 08–09 من المخطوط.

وَصْبَحْ بِمَّا اَلْقَى مْنَ الرَّاحَ مَسْلُوبْ ... بَجْبَالْ الْوَاهْيَا اَيْدِ الْحُسْنْ تْدَلِّيهْ

24 – سورة الأعراف، الآية 53

25 – البيت المقصود هو قول الشاعر: ينظر :ص. 51 من المخطوط.

هَلْ لِي مَنْ جَارْيَ اِذَا لَاحَتْ كَالشَّمْسْ ... يَغْرَبْ بِهَا اَلسْرُورْ فِي وَسْطْ اَكْنَانِي

26 – وهو قول الشاعر: ينظر: ص. 59 من المخطوط.

مَنْ مْحَاسَنْ سَعْدِيَ شَارَتْ اَبْرُوقْ لَمْزَانْ ...ْ وَالْغْمَامْ اَدْعَى اَلْوَحْشْ اَمْنْ اَلْفْجُوجْ ظَلْ

27 – ص. 67 من المخطوط.

28 – ص. 67 من المخطوط.

29 – ص. 08 من المخطوط.

30 – وهو قول الشاعر: ينظر:ص. 05 – 06 من المخطوط.

كِيفْ يَنْسَى قَلْبِي عَرْبْ اَلْعْقِيقْ وَالْبَانْ ... وَالْعْقِيقِ اَعْيُونِي بَقْلَايْدُ اَنْهَلْ

31 – وهو قول الشاعر: ينظر: ص ص.11– 12 من المخطوط.

سَالْنِي عَنْهَا يَوْمَا سَلْفَتْ بَالْاظْعَانْ ... مَنْ مْنَازَل بِشْ لَلْمَنْحْنَا اَوْتَلْ

32 – وهو قول الشاعر: ينظر: ص. 22 من المخطوط.

مَنْ اَنْهَارْ اَنْ فْرَقْ مَا بِينَا المحصَبْ ... والْعْيُونْ اَعْيُونْ بْسِيلَ اَلدْمُوعْ تَجْرِي

33 – وهو قول الشاعر: ينظر: ص. 39 من المخطوط.

مَا نْزُولْ عْلَى الْعَاهَدْ نَنْذَبْ لَمْعَاهَدْ ... مَا بْكَاتْ اَدْمُوعَ الرَّحْمَا اعْيُونْ دِمَا

34 – سورة النحل، الآية 89.

35 – ص. 67 من المخطوط.

36 – سورة الدخان، الآية 51.

37 – وهو قول الشاعر: ينظر: ص. 61 من المخطوط.

اَمْقَامْ طَهَ اَلْمَكِّي بِيتَ اَلرْضَى وْالَامَانْ ... مَا تْرَوَّعْ مَنْ وَحْشُ قَلْبْ مَنْ وَصْلُ

38 – سورة الأنفال، الآية 30.

39 – وهو قول الشاعر: ينظر: اص ص. 70 – 71 من المخطوط.

دَارْ اَلنَّدْوَى اَدْعَاتْ الاَعْيَانْ مْنَ الْجِيشْ .. حِينَ قَالُوا اصْبَا اوْضَلْ ابْنَ الْخَطَّابْ

شِي مَنْهُمْ قَالْ نْثَبْتُوهْ اوْ يَهْنَا الْعِيشْ ... هَذَا شَاعَرْ مَنْ اَلْعْرَبْ هَاجَسْ خَطَّابْ

وَالْبَعْضَ اِيقُولْ خَرْجُوه اَتْرِيحْ اَقْرِيشْ ... سَحْرُ يَعْمِي الْعْيُونْ وَالْسَانُ عَطَّابْ

مَنْ غِيرْ الْقْتَلْ عَمْرْ اَرْضَاهْ اَخْطَابْ.

40 – سورة الحجر، الآية 92–93.

41 – سورة النبأ، الآية 27.

42 – سورة القصص، الآية 78.

43 – ص ص. 68–69 من المخطوط.

44 – وهو قول الشاعر: ينظر: ص. 62 من المخطوط.

هَاذَا عِينَ اَلْوْجُودْ وَالرَّحْمَ طَهَ

45 – ص. 64 من المخطوط.

46 – وهو قول الشاعر: ينظر: ص ص. 10 – 11 من المخطوط.

فِي سْبِيلْ اَمْوَدَّتْهَا نَشْتْهَى حْمَامِي ... اَعْسَى وَعَلَّ نَبْعَثْ بِهَا مْتَوَّجْ اَلرَّاسْ

47 – وهو قول الشاعر: ينظر: ص ص. 14 – 15 من المخطوط.

بَعْدَتْ يَا وِيْحِي الاَعْرَابْ بَالْمْنَازَلْ ... تْعَبْ قَلْبِي خَلْفَ عْجَاجْ الْهْجَانْ وَضْمَاهْ

48 – وهو قول الشاعر: ينظر: ص. 45 من المخطوط.

غِيرْ مَوْلاَتِي مَا نَهْوَاهْ لُو هْوَانِي ... مَنْ اَخْذَتْ بَزْمَامِي نَحْو الْمْقَامْ الاَطْهَرْ

49 – ص. 35 من المخطوط.

50 – ص. 13 من المخطوط.

51 – سورة الحجر، الآية 92–93.

52 – سورة النبأ، الآية 27.

53 – سورة القصص، الآية 78.

54 – ص. 68–69 من المخطوط.

55 – ص. 34 من المخطوط.

56 – ص. 96 من المخطوط.

57 – ص. 08 من المخطوط.

58 – ص. 07–08 من المخطوط.

59 – ص. 54 – 55 من المخطوط.

60 – كذا وردت الأبيات في ص. 45 من المخطوط، وتمامها:

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها ... فليس إليها ما حييت سبيل

لنا صاحب لا نبتغي أن نخونه ... وأنت لأخرى صاحب وخليل

61 – ص. 14 من المخطوط.

62 – ص. 52 من المخطوط.

63 – ص. 11 من المخطوط.

64 – ص. 20 من المخطوط.

65 – ص. 20 من المخطوط.

66 – ص. 65 من المخطوط.

67 – ص. 95 من المخطوط.

68 – ص. 103 من المخطوط.

69 – أشار إلى شرحه للمقامات، والمسمى: "الحلل الحويرية في شرح المقامات الحريرية" في الصفحة 35 من المخطوط، أشار إلى شرح دلائل الخيرات المسمى "الآيات البينات لدلائل الخيرات" في ص. 61 من المخطوط.

70 – ينظر "مفردات ذات دلالات خاصة" من المقال.

71 – ص. 44 من المخطوط.

72 – ص. 11 من المخطوط.

73 – ص ص. 54–55 من المخطوط.

شرح ألفية ابن مالك للشيخ أحمد الأطرش الشريف السنوسي

أ : منصوري توفيق[**]

تعد ألفية ابن مالك منظومة في ألف بيت تقريبا جمعت قواعد النحو والصرف، وقد تلقاها العلماء والنحاة بالشرح والتحليل، ومن الذين شرحوها من علماء الجزائر المعاصرين أحمد الأطرش السنوسي.

كان شرحه مخزونا ومخفيا غير مطبوع وغير مستعمل، وقد آن الأوان التعريف به حتى يظهر إلى النور ليستمد الطلبة والمدرسون والمثقفون مادتهم منه.

التعريف بصاحب المخطوط:[1]

هو سيد أحمد الشريف بن آغا الشارف بن الحاج السنوسي بن عبد القادر بن أحمد بن العربي الصغير بن العربي الكبير الملقب بالأطرش.

ولد رحمه الله يوم الإثنين 14 جويلية 1919م بقرية صغيرة قرب وادي الخير التابعة لولاية مستغانم. عهد به والده الآغا الشارف إلى الكتاتيب فحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة وعمره لا يتجاوز آنذاك الحادية عشر من عمره.

ثمّ تلقى علوم الشريعة على يد علماء جزائريين بارزين مثل: الشيخ الجيلالي السجراري، وعبد الرحمن بلهواري، وسيدي محمد بوعشبة، والعربي التواتي، والمولاي بن زقنون.

التحق رحمه الله بجامع الزيتونة بتونس في سنة 1938م، وتخرّج منه سنة 1944م بشهادة التحصيل، وأثناء هذه الفترة أخذ الشيخ علومه على فطاحلة العلماء بالجزائر وخارجها، وعلى رأسهم الشيخ الطاهر بن عاشور. وبعد إتمام دراسته بتونس عاد إلى مسقط رأسه وأنشأ مدرسة بإذن والده وأعطى دروسا في عدة فنون على حسب الطلبة.

وفي سنة 1955م أغلقت السلطات الاستعمارية هذه المدرسة، وفي نفس السنة انضم الشيخ رحمه الله إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ناضل الشيخ رحمه الله إبّان الحقبة الاستعمارية مع جمعية العلماء المسلمين وذلك من أجل الحفاظ على الهوية الوطنية واللغة العربية، واستمر في نضاله حتى بعد الاستقلال ليبلغ مقام العالم الجليل الذي أسهم بفكره وعقيدته في بناء عقيدة المسلم.

تولى الشيخ عدة مناصب منها:

[**]كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران.